

وداعاً يوسف سلامة.. أبا سليم

ومن ثم أصبح محاوراً لمثقفي النظام ومدعي الثقافة (اللواء الدكتور بهجت سليمان مثلاً) قبل الثورة، وفي بداية الثورة السورية حين كان الكلام ممكناً في الأشهر القليلة التي جاءت بعد الثورة قبل أن يحقق النظام بدمويته مقولة ((لا صوت فوق صوت المعركة)).

ساري حنفي⁽¹⁾

على الرغم من تهميشه، فقد أنتج بعض المؤلفات المهمة؛ لقد انشغل بالتفكير في الجماعة العلمية الفلسفية في كتابه المعد مع مشير عون ((الفكر الفلسفي المعاصر في سورية)) الصادر من مركز دراسات الوحدة العربية في 2020، ويُن أنه على الرغم من سياق القهر السلطوي، أنتج الحقل الفلسفي فلاسفة مهمين استوحوا من معين الفلسفات الغربية، لكن أبدعوا تفلسفاً سورياً وعربياً، مستفيدين من الاتجاهات الماركسية والتفكيكية والنقدية والوجودية والإنسانية الإيمانية.

ينتمي يوسف إلى المدرسة التفكيكية، وقد استعان بفلسفة هيغل من أجل استثمار مقولة السلب، وتطبيقها على واقع التحول التاريخي في العالم العربي. لقد تعامل مع التراث العربي والإسلامي، ليعتقه من يوتوبيا الماضي وتخيالاته التمجيدية، وانتقد بشده مشروعات الإصلاح الديني، وفرق بين إصلاح سلفي يرى أن ((الشريعة ليست في حاجة إلى أي إصلاح؛ لأن قواعدها صالحة لكل زمان ومكان. أما مدار الإصلاح، فينبغي أن يكون الإنسان محوراً له. على الإنسان أن يصلح نفسه بأن يلغي قروناً من التقدم والتطور ليتطابق -سلوفاً وفكراً- مع لحظة الانبعاث الأولى التي يمثلها السلف الصالح))، وانتصر لإصلاح يسميه (المدني) الذي يطلب ((إلى الإنسان أن يصلح منطقته وأفكاره، وأن يؤمن بأن الصور الأبدية للشريعة قادرة -بصورة لا متناهية- على استيعاب كل مضامين التقدم التي تبتكرها الإنسانية، من غير أن يدخل أي تعديل أو تطوير على الصور الخالدة للشريعة))⁽²⁾.

مرت الأيام وذهبت إلى فرنسا لمتابعة دراستي العليا، وبقينا نتواصل في كل صيف أحضر به إلى دمشق. ولكن تكاثفت اللقاءات عندما أصبحت أستاذاً في الجامعة الأمريكية في بيروت. وربما ما عرفته عنه هو احتضانه لطلابه

في منتصف الثمانينيات خبرني صديق كان يعرف أنني مهتم بفكر حسن حنفي أن تلميذاً له اسمه يوسف سلامة. قد حضر من القاهرة حديثاً، وبدأ يدرّس في جامعة دمشق. وبوساطة صديق لي رُتب لقاء في بيته في مخيم اليرموك، كان يبعد عن بيتي مسافة خمسة دقائق مشياً على الأقدام. ومنذ ذلك اللقاء ربطتنا صداقة متينة، وكنا نتزاور كثيراً، وبدأت أتعرف إلى عائلته الرائعة؛ زوجته التربوية القديرة وفاء سليمان وأولاده. كنت أستغرب كثيراً كيف يمكن لهذا الفيلسوف مع مشكلة بصره أن يتابع الجدل العلمي المعاصر. كان يعجبني حس يوسف النقدي الخارج عن العادة، فعندما اشترت كتاب حسن حنفي (من العقيدة إلى الثورة) لم يكن مقنعاً حيث كان العنوان أكبر كثيراً من مضمون المجلدات الأربعة، وخشيت أن أتحدث مع يوسف في ذلك كون حسن حنفي أستاذه، واكتشفت حينئذ أنه ناقد ممتاز لبعض أفكار حنفي. فهو الذي كتب أطروحته الدكتوراه حول الديالكتيك الهيجلي، ليبحت دائماً عن أطروحات أحسن مما كان عليه فكر السلف، بمن فيهم أستاذه حسن حنفي الذي يكن له كل تقدير.

أتذكر أيضاً حضوري بعض أطروحات الدكتوراه في جامعة دمشق، ولعله كان من القلائل الذين يتجرؤون على مناقفة الطلاب فكرياً وسياسياً أيضاً، وهذا ليس سهلاً في بلد الاستبداد سورية. كان له الفضل في تعليمي الشجاعة النقدية، ولو بدفع الثمن في المسار المني. ولعل ذلك ما يفسر لماذا كان الدكتور يوسف سلامة مهمشاً في جامعة دمشق. يوسف سلامة، المنحدر من عائلة فلسطينية بعضها بعثي (فأخوه كان مسؤول حزب البعث في مخيم اليرموك)، يمكن أن أفهم بعض سلوكه بوصفه ثارياً (ليس بالمعنى البدائي، ولكن فعلاً واعياً) من هذا الاتجاه العائلي. فقد التقيت به ببعض منتديات (ربيع دمشق) في بداية الألفية الجديدة،

(2) <https://bit.ly/3IvaYcF>

(1) أستاذ علم الاجتماع، الجامعة الأمريكية في بيروت.

الاجتماع، وبخاصة لمجموعة هي أقرب إلى اليسار، سأسمهم (ليبراليون كلاسيكيون لكنهم سياسيًا غير ليبراليين - باختصار "ليبراليون رمزيون"). هؤلاء لم يقاوموا سياق الحدائنة المتأخرة حيث بلغت النيوليبرالية والرأسمالية العاطفية ذروتها. وسقت مثالاً على ذلك تأكل سلطة الأسرة في الدولة الليبرالية، وأظهرت كيف بينت بعض الأبحاث مؤخرًا احتجاجات العائلات المهاجرة في السويد ضد السلطة البيروقراطية لمجلس الرعاية الاجتماعية الذي يتصرف في ما يخص الأطفال والمراهقين من دون اتباع الإجراءات القانونية المتعارف عليها. فوفقًا للتقرير الذي نشره مجلس الرعاية الاجتماعية في آب/ أغسطس 2021، تدخل هذا المجلس في 35300 حالة خلال عام واحد (2020). وكانت أحد أكثر الطرائق شيوعًا هي الأسر الحاضنة، حيث وضع 3486 من الأطفال والمراهقين في رعايتها، ضد رغبة أهلهم⁽⁵⁾. وقد بينت أنه بعد ثلاث مسيرات احتجاجية في ثلاث مدن في السويد رافقتها حملة على وسائل التواصل الاجتماعي بعنوان (أوقفوا خطف أطفالنا) ردّت السلطات السويدية في 6 شباط/ فبراير 2023، متهمة حسابات وسائل التواصل الاجتماعي بالارتباط بـ ((منظمات إسلامية تمارس العنف)). وحذرت من حملات التضليل والتهديد بالعنف ضدّ الخدمات الاجتماعية، ومن خطر وقوع هجمات إرهابية بعد ذلك. وتساءلت إن كانت حملة تقودها منظمات إسلامية تدعو إلى العنف، وبينت من خلال كثير من البيانات والدراسات السويدية أن الدولة السويدية استخدمت (في بعض الحالات) سلطتها وسلطة المدرسة ضد سلطة الأسرة بدلًا من تكاملها معها، حيث تفاقمت سياسات الدولة مع الرأسمالية العاطفية، ومع تحولات العلاقات الحميمية لتقليل حجم الأسرة، إلى حدّ أن كثيرًا من الأطفال ينشؤون من دون إخوة، ولا أولاد أعمام أو أولاد أخوال. وأظهرت أن الموضوع ليس نقدًا لخيارات فردية متعلقة بمفهومات الخبر في عصر الحدائنة المتأخرة، ولكن يجب عدم فرضها بوساطة الليبرالية الرمزية السويدية (من خلال القوانين، أو من خلال مناهج المدرسة الابتدائية) باختصار، ما أنتقده أن تمكين الطفل من حقوق فردية لا يعني حمايته من أسرته

في جامعة دمشق، فقد كان يطلب مني كثيرًا تصوير بعض الكتب من مكتبة جامعتي لهم. فقد عرف بكرمه بالوقت والجهد لطلابه. وبعد خروجه في إبان بدء الثورة السورية إلى بيروت التقيت به مرات عدة. لقد درست في هذه الجامعة ابنته النبهة رنيم التي كانت تحمل معها دائمًا أجوبة عن أسئلتي عن صحة يوسف وأحواله. لم تنقطع العلاقة في منفاه في مالمو السويد، فقد كانت هناك مكالمات طويلة وبعضها طويلة جدًا للتحدث عن أمور كثيرة؛ الحسرة على سورية وعلى فلسطين، وقضايا حول مقالات مجلة قلمون التي كان يرأس تحريرها وكنت عضوًا في هيئة التحرير. واحدة من المناقشات الطويلة كانت حول موقفه من الحكم الذاتي للأكراد، واختلفنا على الشكل، وليس الهدف النهائي المتمثل في تعالي المواطنة، وخلق فضاءات للتعددية. وربما ما يوضح كيف رأى سلامة الهوية السورية مقال يختمه كما يأتي: ((هذا التصور الجديد للهوية السورية، القائم على قلب الأولويات الوجودية ذاتها، بالاستناد إلى القوة التي سنستمددها من (إرادة العيش المشترك)، سيسمح للسوري بأن يعرف نفسه بأنه (سوري - عربي) أو بأنه (سوري - كردي) أو بأنه (سوري - تركماني) أو بأنه (سوري - آشوري). وهكذا يصبح الحد الجامع متقدمًا على الحد المنتج للصراع والنزاع من ناحية، ومن ناحية أخرى، سيتحول الحد الذي كان مصدرًا للشقاق والصراع إلى عناصر تغني وتني الهوية السورية، بعد أن كانت تلعب دور الأضداد المدمرة لأي مشروع وطني))⁽³⁾.

سررت جدًا بلقائي يوسف في إسطنبول في مؤتمر الباحثين السوريين في نيسان/ أبريل السنة السابقة، وقد كان فرصة للمسامرة والمناقشات الفكرية، ولأول مرة حديثي عن شعوره بالعزلة عن الجماعة العلمية في منفاه السويد. وظهر ذلك جليًا في آخر هاتف معه، حيث امتد الحديث إلى مشكلة حصلت لي مع مجموعة من السوسولوجيين السويديين، وقد كنت أبحث عن رأيه بذلك. ففي خطابي رئيسًا للجمعية الدولية لعلم الاجتماع في المؤتمر العالمي العشرين لعلم الاجتماع 2023 (الذي نشر في ما بعد بالإنكليزية والعربية⁽⁴⁾) كنت قد تناولت مشكلة معيارية لعلم

<https://omran.dohainstitute.org/ar/046/Documents/Omran-46-2023-Hanafi.pdf>

(5) <https://www.thelocal.se/20220222/fact-check-what-is-swedens-lvu-and-how-does-it-work>.

(3) <https://bit.ly/48MSyOb>

(4) ساري حنفي "نحو علم اجتماع حواري"، ع: 46، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية، (2023).
ص 7-31

بل حمايته مع أسرته. وعلى المشروع الليبرالي تأمين الجدل اللازم في المجال العام، وبخاصة الحرم الجامعي، لدراسة كيفية إعادة الاعتبار إلى رسالة الأسرة، والأخذ في الحسبان إعادة الإنتاج الاجتماعي في تصور العدالة الاجتماعية. بعد شرح ذلك ليوسف سلامة سرني أنه أكد صحة تحليلي، واستحضر أمثلة أخرى سمع عنها هناك، واستحضر النزعة الاستشراقية عند كثير من الباحثين السويديين في كيفية تعاملهم مع المهاجرين في السويد.

رحمك الله يا أبا سليم؛ لقد كنت طيبًا وكريمًا في طبعك، وفيلسوفًا متوقدًا.

لقد كان قارئًا ممتازًا حتى أيامه الأخيرة. آخر مكالمة معه كانت قبل شهر، طلب مني إرسال كتاب لزيغمونت باومان، وفعلاً فعلت. كان متشوقًا لقراءته، فهل قرأه أم وافاه المرض قبل ذلك؟ لقد وافاني ابنه قاسم أنه كان يهلوس بمقالات مجلة قلمون حتى آخر لحظة قبل أن توافيه المنية.

لن ننساك يا يوسف، وستبقى أثارك الفلسفية حاضرة إلى الأبد، رحمك الله، والصبر والسلوان لوفاء ورنيم وسليم وقاسم.